أسرار الحجّ وأعماله الباطنة من شرح نهج البلاغة
لكمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني
من أعلام القرن السابع الهجري

اعداد: فارس تبريزيان

بعدما شرعت بكتابة بحث: الحجّ في نهج البلاغة، واعتمدت فيه على أقدم الشروح وأكثرها اعتباراً، عثرت على بحث لطيف لكمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، من أعلام القرن السابع الهجري، حول أسرار الحج وأعماله الباطنة ووجه الحكمة في الحج، ضمّنه كتابه الشريف شرح نهج البلاغة، ذكره بعد شرحه للمقطع المتضمن لذكر الحج في آخر الخطبة الأولى من نهج البلاغة.

ورأيتُ بحثه هذا شاملاً لأدقّ المعاني العرفانية في أسرار الحج وأعماله الباطنة، ذكر فيه الأحاديث المروية عن النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وأشار إلى نكات دقيقة لا توجد في غيره.

فعزمتُ على إفراد هذا البحث ونشره مستقلاً، ليعمّ به النفع، وإنما سمّيته: أسرار الحج وأعماله الباطنة؛ لأنه قال في آخر البحث: فهذه هي الإشارة إلى أسرار الحج وأعماله الباطنة.

موجز عن حياة كمال الدين ميثم البحراني:

ولد ونشأ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني في البحرين، في بيئة

تحيطه بالعلم والتقوىٰ، وبذل والده في تربيته أقصى الجهد، واستفرغ في تأديبه وتهذيبه وسعه، وبوّأه من علمه وحكمته مبوّأ صدقٍ.

درس علىٰ أساتذة الفنّ العلوم العربية وأتقنها، ثمّ العلوم الشرعية العقلية والنقلية، وصار من العلماء الأتقياء المعروفين.

غلبت عليه العزلة واختارها وأحبها.

جرت بينه وبين علماء العراق مكاتبات، مما أدّت إلى خروجه عن العزلة والتوجّه إلى العراق وإيران لأجل زيارة العتبات المقدسة والاجتماع بالعلماء. استغرقت رحلته هذه عدّة سنين، وكان في السفر أيضاً لا يفتر عن المطالعة والبحث، حتّىٰ إنه ألّف شروحه الثلاثة لنهج البلاغة في السفر.

كان ﵀ كثير العبادة، كثير المطالعة، كثير الإرشاد للناس والموعظة.

وأما مشايخه فلم تذكر لنا المصادر غير ثلاثه منهم، ونقطع بأنهم أكثر من هذا العدد، أهملت ذكرهم مصادر التراجم:

أبو السعادات أسعد بن عبد القاهر بن أسعد الاصفهاني.

جمال الدين علي بن سليمان بن يحيىٰ بن محمد بن قائد بن صباح البحراني.

نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي.

وروىٰ عن البحراني بعض الفقهاء والمحدّثين، منهم:

غياث الدين السيد عبد الكريم بن أحمد بن موسىٰ الطاوس الحسني.

محمد بن علي بن محمد بن جهيم الأسدي الحلي، وغيرهما.

وأمّا مؤلفاته:

شروح نهج البلاغة: كبير، ومتوسط، وصغير.

شرح المائة كلمة.

استقصاء النظر في إمامة الأئمة الاثني عشر.

البحر الخضيم، في الإلهيات.

رسالة في الوحي والإلهام.

شرح الإشارات.

نجاة القيامة في تحقيق الإمامة، ويحتمل اتحاده مع استقصاء النظر.

القواعد الإلهية في الكلام والحكمة.

وألّف الشيخ سليمان البحراني في أحواله رسالة سماها: السلافة البهية في الترجمة الميثمية.

توفي ﷺ في البحرين في أواخر القرن السابع الهجري، ودفن بها[1].

وأمّا هذا البحث ـ أسرار الحجّ وأعماله الباطنة ـ فذكره ﷺ في شرحه علىٰ نهج البلاغة الكبير، والذي طبع مرّتين في خمسة مجلدات، الأولىٰ في النجف سنة ١٣٧٩هـ والثانية في طهران سنة ١٤٠٤هـ مطبعة خدمات چاپي، واعتمدنا في نقله على الطبعة الثانية، والذي يقع في الجزء الأول من صفحة ٢٢٣ إلىٰ صفحة ٢٣٢، وقوّمنا نصّه وصحّحناه بقدر الإمكان، وأضفنا بعض العناوين ووضعناها بين معقوفين.

[بسم الله الرحمن الرحيم]

واعلم، أنّا لمّا بيّنّا وجوب العبادات، وأشرنا إلىٰ وجه الحكمة فيها، فبالحريّ أن نشير إلىٰ وجه الحكمة في خصوص الحج من جملتها، ونؤخّر تفصيل باقيها إلىٰ مواضعه، إن شاء الله.

[مقدّمة]

فأمّا الحجّ، فإنّكَ لمّا عرفت أنّ الغرض الأول من العبادات هو جذب الخلق إلىٰ جناب الحقّ، بالتذكير له ودوام إخطاره بالبال، لتجلّي لكَ الأسرار علىٰ طول التذكار، وينتهي في ذلك من أخذَتِ العنايةُ بيده إلىٰ مقام المخلصين.

فمن جملة أسرار الله سبحانه المنزلَة على لسان رسوله، تعيين موضع من البلاد، أنه أصلح المواضع لعبادة الله، وأنّه خاص له.

ولابدّ أن تُبنىٰ مثل هذه الأوضاع علىٰ إشارات ورموز إلىٰ مقاصد حقيقية، يتنبّه لها مَن أخذ التوفيق بزمام عقله إليها.

ولابدّ من تعيين أفعال تفعل في ذلك المكان، وأنها إنما تفعل في ذات الله سبحانه.

وأنفع المواضع المعيّنة في هذا الباب ما كان مأوىٰ[٢] الشارع ومسكنه، فإنّ ذلك مستلزم لذكره، وذكره مستلزم لذكر الله سبحانه، وذكر ملائكته واليوم الآخر.

ولمّا لم يكن في المأوى الواحد أن يكون مشاهداً لكلّ أحدٍ من الأمة، فالواجب إذن أن يفرض إليه مهاجرة وسفراً، وإن كان فيه نوع مشقّة وكلفة: من تعب الأسفار، وإنفاق المال، ومفارقة الأهل والولد والوطن والبلد.

ونحن نذكر فضيلته من جهة السمع، ثم نشير إلىٰ ما ينبغي أن يوظّف فيه من الآداب الدقيقة، [ثم نشير إلى الوظائف القلبية] والأعمال الباطنة عند كلّ حركة وركن من أركان الحج، مما يجري من تلك الأركان مجرى الأرواح للأبدان.

فإذن هاهنا أبحاث:

البحث الأول:

[فضيلة الحج من جهة السمع]

أمّا الفضيلة، فمن وجوه:

الأول: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٣]، قال قتادة: لمّا أمر الله عزّ وجلّ خليله إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن في الناس، [فـ] نادىٰ: ﴿أنّ لله بيتاً فحجّوه﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[٤]، قيل: التجارة في المواسم والأجر في الآخرة، ولمّا سمع بعض السلف هذا قال: غفر لهم وربّ الكعبة.

الثاني: قال عليه السلام: «مَن حجّ ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه»[٥].

وقد عرفتَ كيفيّة نفع العبادات في الخلاص من الذنوب.

الثالث: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما رؤي الشيطانُ في يوم هو أصغر ولا أحقر ولا أغيض منه يوم عرفة»[٦].

وما ذلك إلّا لما يرىٰ من نزول الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إذ يقال: «من الذنوب مالا يكفّرها إلّا الوقوف بعرفة»، أسنده الصادق عليه السلام إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[٧].

وكان سرّ ذلك: ما يحصل من رحمة الله، ويُفاض على أسرار العبادة التي قد صفَتْ بشدّة الاستعداد الحاصل من ذلك الموقف العظيم، الذي يجتمع فيه العالم أشدّ اجتماع، فان الاجتماع سببٌ عظيمٌ في الانفعال والخشية لله وقبول أنواره، كما سنبينه إن شاء الله.

الرابع: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «حجّةٌ مبرورةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها، وحجّةٌ مبرورةٌ ليس لها أجرٌ إلّا الجنّة»[٨].

[الخامس]: قال ﷺ: «الحجّاجُ والعمّارُ وَفْدُ الله وزوّاره، إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروه غفر لهم، وإن دعوه استجاب لهم، وإن شفعوا إليه شفّعهم»(٩).

السادس: روي عنه ﷺ من طرق أهل بيته عليهم السلام: «أعظم الناس ذنباً مَن وقف بعرفة وظنّ أنّ الله لم يغفر له»(١٠).

وفي فضل جزئيات الحج أخبار كثيرة تُطلب من مظانّها(١١).

البحث الثاني:

في الآداب الدقيقة

وهي عشرة:

الأول: أن تكون النفقة حلالاً، ويخلو القلب عن تجارة تشغله سوى الله تعالىٰ.

وفي الخبر من طريق أهل البيت: «إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج علىٰ أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة، وقرّاؤهم للسمعة»(١٢).

وفي الخبر إشارة إلىٰ جملة أغراض الدنيا الّتي يتصور أن تتصل بالحج، فكلّ ذلك مانع لفضيلة الحج ومقصود الشارع منه.

الثاني: أن لا يساعد الصادّين عن سبيل الله والمسجد الحرام بتسليم المكوس(١٣) إليهم، فإنّ ذلك إعانة على الظلم، وتسهيل لأسبابه، وجرأة علىٰ سائر السالكين إلى الله، وَلْيَحْتَلْ في الخلاص، فإن لم يقدر فالرجوع أولىٰ من إعانة الظالمين على البدعة وجعلها سنة.

الثالث: التوسّع في الزاد، وطيب النفس في البذل، والإنفاق بالعدل، دون

البُخل والتبذير، فإنّ بذلَ الزادِ في طريق مكة إنفاقٌ في سبيل الله.

قال ﷺ: «الحجّ المبرور ليس له أجرٌ إلّا الجنة»، فقيل: يا رسول الله ما برّ الحجّ؟ قال: «طيب الكلام، وإطعام الطعام»(١٤).

الرابع: ترك الرَفَثَ والفُسُوق والجدال، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(١٥).

والرفث: كلّ لغوٍ وفحشٍ من الكلام، ويدخل في ذلك محادثة النساء بشأن الجماع المحرّم، فإنّها تهيّج داعيته، وهي مقدّمة له، فتحرم، ومن لطف الشارع إقامة مظنّة الشيء مقام الشيء حسماً لمادّته.

والفسوق: الخروج عن طاعة الله.

والجدال: هو المماراة والخصومة الموجبة للضغائن والأحقاد وافتراق كلمة الخلق(١٦).

وكلّ ذلك ضدّ مقصود الشارع من الحجّ، وشغلٌ عن ذكر الله.

الخامس: أن يحج ماشياً مع القدرة ونشاط النفس، فإنّ ذلك أفضل وأدخل للنفس في الإذعان لعبودية الله.

وقال بعض العلماء: الركوب أفضل، لما فيه من مؤونة الإنفاق، ولأنّه أبعد من الملال، وأقلّ للأذىٰ، وأقرب إلى السلامة وأداء الحجّ.

وهذا التحقيق غير مخالف لما قلناه، والحقّ التفصيل، فيقال: مَن سهل عليه المشي فهو أفضل، فإن أضعف وأدّى إلىٰ سوء خلق وقصور عن العمل فالركوب أفضل، لأنّ المقصود توفّر القوىٰ علىٰ ذكر الله تعالىٰ، وعدم المشتغلات عنه.

السادس: أن يركب الزاملة، دون المحمل، لاشتماله على زيّ المترفين والمتكبرين، ولأنه أخفّ على البعير، اللهمّ إلّا لعذرٍ.

حجّ رسول الله ﷺ علىٰ راحلته، وكان تحته رحل رثّ وقطيفة خلقة،

قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس إلىٰ هيأته وشمائله، وقال: «خذوا عنّي مناسككم».

السابع: أن يخرج رثّ الهيأة، أقرب إلى الشعث، غير مستكثر من الزينة وأسباب التفاخر، فيخرج [فإذا استكثر خرج] بذلك عن حزب السالكين وشعار الصالحين.

روي عنه ﷺ أنه قال: «إنّما الحاجّ الشعث التفث[١٧]، يقول الله تعالىٰ لملائكته: انظروا إلىٰ زوّار بيتي قد جاؤوني، شعثاً غبراً من كلّ فجّ»[١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾[١٩]، والتفث: الشعث والإغبرار، وقضاؤه: بالحلق وتقليم الأظفار.

الثامن: أن يرفق بالدابة، ولا يحملها ما لا تطيق.

كان أهل الورع لا ينامون على الدابة إلّا غفوة من قعود.

قال ﷺ: «لا تتخذوا ظهور دوابّكم كرسيّ»[٢٠].

ويستحب أن ينزل عن دابته غدوّة وعشيّة، يروّحها بذلك، فهو سنّة.

وسرّ ذلك: مراعاة الرقّة والرحمة، والتخلّي عن القسوة والظلم، ولأنّه يخرج بالعسف عن قانون العدل ومراعاة عناية الله وشمولها، فإنها كما لحقت الإنسان لحقت سائر الحيوان.

التاسع: أن يتقرب بإراقة دمٍ، ويجتهد أن يكون سميناً ثميناً.

روي: أن عمر أهدىٰ نجيبةً، فطُلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بُدُناً، فنهاه رسول الله ﷺ وقال: «بل اهدها»[٢١]، وذلك لأن المقصود ليس تكثير اللحم، وإنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن رذيلة البُخل وتزيينها بجمال التعظيم لله، ﴿لَن ينالَ اللهَ لحُومُها وَلا دِمَاؤُها وَلِكنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُم﴾[٢٢].

قال ﷺ: «ما عمل آدميّ من عملٍ يوم النحر أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من إهراق الدم إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكانٍ قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً»(٢٣).

العاشر: أن يكون طيّب النفس بما أنفقه من هدي وغيره، وبما أصابه من خسران ونقيصة مال، إن أصابه ذلك فإنّه بذلك يكون مكتفياً إلى الله سبحانه عن كلّ ما أنفقه، متعوّضاً عنه ما عند الله، وذلك علامة لقبول حجّه.

البحث الثالث:

في الوظائف القلبية عند كلّ عمل من أعمال الحجّ

اِعلم، أنّ أول الحج فهم موقع الحجّ في الدين، ثمّ الشوق إليه، ثمّ العزم عليه، ثمّ قطع العلائق المانعة عنه، ثمّ تهيئة أسباب الوصول إليه من الزاد والراحلة، ثمّ السير، ثمّ الإحرام من الميقات بالتلبية، ثمّ دخول مكة، ثمّ استتمام الأفعال المشهورة.

وفي كلّ حالة من هذه الحالات تذكرةٌ للمتذكّر، وعبرة للمعتبر، ونبّهٌ للمريد الصادق، وإشارةٌ للفطن الحاذق، إلىٰ أسرار يقف عليها بصفاء قلبه وطهارة باطنه إن ساعده التوفيق.

أمّا الفهم:

فاعلم، أنه لا وصول إلى الله إلّا بتنحية ما عداه عن القصد من المشتهيات البدنية واللذات الدنيوية، والتجريد في جميع الحالات، والاقتصار على الضروريات، ولهذا انفرد الرهبان في الأعصار السالفة عن الخلق في قلل الجبال، توحّشاً من الخلق، وطلباً للأُنس بالخالق، وأعرضوا عن جميع ما سواه، ولذلك

مدحهم بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٤).

فلمّا اندرس ذلك، وأقبل الخلق على اتّباع الشهوات، والإقبال على الدنيا، والالتفات عن الله، بعث نبيّه ﷺ، لإحياء طريق الآخرة، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها، فسأله أهل الملل عن الرهبانيّة والسياحة في دينه، فقال: «أبدلنا بها الجهاد والتكبير علىٰ كلّ شرف» يعني: الحج، وسئل عن السائحين، فقال: «هم الصائمون»، فجعل سبحانه الحجّ رهباينة لهذه الأمّة.

فشرّف البيت العتيق بإضافته إلىٰ نفسه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حوله حرماً لبيته، تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه، وجعل عرفات كالميدان علىٰ باب حرمه، وأكّد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه علىٰ مثال حضرة الملوك، يقصده الزوّار من كلّ فجّ عميق، شعثاً غبراً، متواضعين لربّ البيت، مستكينين له خضوعاً بجلاله واستكانةً لعزّته، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحومه مكان، ليكون ذلك أبلغ في رقّهم وعبوديّتهم.

ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلىٰ معانيها العقول، كرمي الجمار بالأحجار، والتردّد بين الصفا والمروة علىٰ سبيل التكرار.

وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرقّ والعبودية، بخلاف سائر العبادات، كالزكاة التي هي إنفاق في وجه معلوم وللعقل إليه ميل، والصوم الذي هو كسر للشهوة التي هي عدوّ لله وتفرغ للعبادة بالكفّ عن الشواغل، وكالركوع والسجود في الصلاة الّذي هو تواضع لله سبحانه بأفعال علىٰ هيئات التواضع وللنفوس أنسٌ بتعظيم الله تعالىٰ.

وأمّا أمثال هذه الأعمال، فإنه لا اهتداء للعقل إلىٰ أسرارها، فلا يكون للإقدام عليها باعث إلّا الأمر المجرد وقصد امتثاله من حيث هو واجب الاتباع

فقط، وفيه عزل للعقل عن تصرّفه، وصرف النفس والطبع عن محلّ أنسه المعين على الفعل من حيث هو، فإنّ كلّ ما أدرك العقل وجه الحكمة في فعله مال الطبع إليه ميلاً تاماً، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «لبّيك بحجّة حقّاً تعبّداً ورقّاً»[٢٥]، ولم يقل ذلك في الصلاة وغيرها.

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه ربط نجاة الخلق بكون أعمالهم علىٰ خلاف أهوية طباعهم، وأن تكون أزمتها بيد الشارع، فيتردّدون في أعمالهم علىٰ سنن الانقياد ومقتضى الاستعباد، كان ما لا يهتدى إلىٰ معانيه أبلغ أنواع التعبدات، وصرفها عن مقتضى الطبع إلىٰ مقتضى الاسترقاق، ولهذا كان مصدر تعجب النفوس من الأفعال العجيبة هو الذهول عن أسرار التعبدات.

وأما الشوق:

فباعثه الفهم أنّ البيت بيت الله، وأنه وضع علىٰ مثال حضرة الملوك، فقاصده قاصدٌ لله تعالىٰ، ومَن قصد حضرة الله تعالىٰ بالمثال المحسوس، فجدير أن يترقىٰ منه بحسب سوق شوقه إلى الحضرة العلوية والكعبة الحقيقية التي هي في السماء، وقد بني هذا البيت علىٰ قصدها، فيشاهد وجه ربّه الأعلىٰ بحكم وعده الكريم.

وأمّا العزم:

فليستحضر في ذهنه أنه لعزمه مفارقٌ للأهل والولد، هاجر للشهوات واللذات، مهاجرٌ إلىٰ ربّه، متوجّهٌ إلىٰ زيارة بيته.

وليعظّم قدر البيت لقدر ربّ البيت، وليخلص عزمه لله، ويبعده عن

شوائب الرياء والسمعة، فإن ذلك شركٌ خفيٌّ، وليتحقّق أنه لا يقبل من عمله وقصده إلّا الخالص، وأنّ من أقبح المقابح أن يقصد بيت الملك وحَرَمَهُ مع اطلاع ذلك الملك علىٰ خائنة الأعين وما تخفي الصدور ويكون قصده غيره، فإنّ ذلك استبدال للذي هو أدنىٰ بالّذي هو خير.

أمّا قطع العلائق:

فحذف جميع الخواطر عن قلبه، غير قصد عبادة الله، والتوبة الخالصة له عن الظلم وأنواع المعاصي، فكلّ مظلمة علاقةٌ، وكلّ علاقة خصمٌ حاضرٌ متعلّقٌ به ينادي عليه ويقول:

أتقصد بيت الملوك وهو مطّلع علىٰ تضييع أمره لك في منزلك هذا، وتستهين به، ولا تلتفت إلىٰ نواهيه وزواجره، ولا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيغلق دونك أبواب رحمته، ويلقيك في مهاوي نقمته، فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فأبرز إليه من جميع معاصيك، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلىٰ ما وراءك، لتتوجّه إليه بوجه قلبك، كما أنتَ متوجّهٌ إلىٰ بيته بوجه ظاهرك.

وليذكر عند قطعه العلائق لسفر الحجّ قطع العلائق لسفر الآخرة، فإنّ كلّ هذه أمثلة قريبة يترقّىٰ منها إلىٰ أسرارها.

وأمّا الزاد:

فليطلبه من موضع حلالٍ، فإذا أحسّ من نفسه بالحرص علىٰ استكثاره وطيبه وطلب ما يبقى منه علىٰ طول السفر ولا يتغيّر قبل بلوغ المقصد، فليذكر أنّ سفر الآخرة أطول من هذا السفر، وأنّ زاده التقوىٰ، وأما ما عداه لا يصلح زاداً،

ولا يبقىٰ معه إلّا ريثما هو في هذا المنزل.

وليحذر أن يفسد أعماله التي هي زاده إلى الآخرة بشوائب الرياء، وكدورات التقصير، فيدخل في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ● الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[٢٦].

وكذلك فليلاحظ عند ركوب دابّته تسخير الحيوان له، وحمله عنه الأذىٰ، ويتذكّر منّتهِ تعالىٰ لشمول عنايته ورأفته، حيث يقول: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢٧]، فيشكره سبحانه علىٰ جزيل هذه النعمة وعظيم هذه المنّة.

ويستحضر نقلته من مركبه إلىٰ منازل الآخرة، التي لا شك فيه، ولعلّه أقرب من ركوبه الحاضر، فيحتاط في أمره.

وليعلم أنّ هذه أمثلة محسوسة، يترقّىٰ منها إلىٰ مراكب النجاة من الشقّة الكبرىٰ، وهي عذاب الله سبحانه.

وأما ثوب الإحرام وشراؤه ولبسه:

فليتذكّر معه الكفن، ودرجه فيه، ولعلّه أقرب إليه.

وليتذكّر منها التسربل بأنوار الله الّتي لا مخلص من عذابه إلّا بها، فيجهد في تحصيلها بقدر إمكانه.

وأمّا الخروج من البلد:

فليستحضر عنده أنّه يفارق الأهل والولد، متوجّهاً إلى الله سبحانه في سفر غير أسفار الدنيا.

ويستحضر أيضاً غايته من ذلك السفر، وأنه متوجّه إلىٰ ملك الملوك

وجبّار الجبابرة، في جملة الزائرين الذين نودوا فأجابوا، وشوّقوا ما اشتاقوا، وقطعوا العلائق، وفارقوا الخلائق، وأقبلوا علىٰ بيت الله طلباً لرضى الله وطمعاً في النظر إلىٰ وجهه الكريم.

وليحضر أيضاً في قلبه رجاء الوصول إلى الملك، والقبول له بسعة فضله، وليعتقد أنّه إن مات دون الوصول إلى البيت لقي الله وافداً عليه، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيتِهِ مهاجراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله﴾[٢٨].

وليتذكر في أثناء طريقه من مشاهدة عقبات الطريق عقبات الآخرة، ومن السباع والحيّات حشرات القبر، ومن وحشة البراري وحشة القبر وانفراده عن الأنس، فإنّ كلّ هذه الأمور جاذبة إلى الله سبحانه ومذكّرة له أمر معاده.

وأمّا الإحرام والتلبية من الميقات:

فليستحضر أنه إجابة نداء الله تعالىٰ، وليكن في قبول إجابته بين خوف ورجاء، مفوّضاً أمره إلى الله، متوكّلاً علىٰ فضله.

قال سفيان بن عيينة: حجّ زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، فلمّا أحرم واستوت به راحلته، اصفرّ لونه، ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبّي، فقيل له: ألا تلبّي، فقال: «أخشىٰ أن يقول: لا لبّيك ولا سعديك!»، فلمّا لبّىٰ غشي عليه وسقط عن راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتّىٰ قضىٰ حجّه[٢٩].

فانظر رحمك الله إلىٰ هذه النفس الطاهرة، حيث بلغ بها الاستعداد لإفاضة أنوار الله، لم تزل الغواشي الإلهية والنفحات الربّانيّة تغشاها، فيغيب عن كلّ شيء سوىٰ جلال الله وعظمته.

وليتذكّر عند إجابته نداء الله سبحانه، إجابة ندائه بالنفخ في الصور،

وحشر الخلق من القبور، وازدحامهم في عرصات القيامة، مجيبين لندائه، منقسمين إلىٰ: مقرّبين، وممقوتين، ومقبولين، ومردودين، ومردّدين في أول الأمر بين الخوف والرجاء، تردّد الحاج في الميقات: حيث لا يدرون أيتيسّر لهم إتمام الحجّ أم لا.

أما دخول مكة:

فليستحضر عنده أنه قد انتهى إلىٰ حرم الله الآمن، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله، وليخش أن لا يكون من أهل القرب، وليكن رجاؤه أغلب، فإنّ الكريم عميم، وشرف البيت عظيم، وحقّ الزائر مرعي، وذمام اللائذ المستجير غير مضيّع، خصوصاً عند أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

ويستحضر أنّ هذا الحرم مثال للحرم الحقيقي، لترقى من الشوق إلىٰ دخول هذا الحرم والأمن بدخوله من العقاب، إلى الشوق إلىٰ دخول ذلك الحرم والمقام الأمين.

وإذا وقع بعده على البيت فليستحضر عظمته في قلبه، وليترقّ بفكره إلىٰ مشاهدة حضرة ربّ البيت في جوار الملائكة المقرّبين، وليتشوّق أن يرزقه النظر إلىٰ وجهه الكريم، كما رزقه الوصول إلىٰ بيته العظيم، وليتكثّر من الذكر والشكر علىٰ تبليغ الله إيّاه هذه المرتبة.

وبالجملة، فلا يغفل عن تذكير أحوال الآخرة في كلّ ما يراه، فإنّ كلّ أحوال الحجّ ومنازله دليل يترقّىٰ منه إلىٰ مشاهدة أحوال الآخرة.

وأمّا الطواف بالبيت:

فليستحضر في قلبه التعظيم والخوف والخشية والمحبّة، وليعلم أنّه بذلك متشبّه بالملائكة المقرّبين الحافين حول العرش الطائفين حوله.

ولا تظنّن أنّ المقصود طواف جسمك بالبيت، بل طواف قلبك بذكر ربّ البيت، حتّىٰ لا تبتدئ بالذكر إلّا منه، ولا تختم إلّا به، كما تبدأ بالبيت وتختم به.

واعلم أنّ الطواف المطلوب هو طواف القلب بحضرة الربوبية، وأنّ البيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي هي عالم الغيب، كما أنّ الإنسان الظاهر مثال الظاهر في عالم الشهادة للإنسان الباطن الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب، وأن عالم الملك والشهادة مرقاة ومدرج إلىٰ عالم الغيب والملكوت لمن فتح له باب الرحمة، وأخذت العناية الإلهية بيده لسلوك الصراط المستقيم.

وإلىٰ هذه الموازنة وقعت الإشارة الإلهية: بأنّ البيت المعمور في السماء بإزاء الكعبة، وأنّ طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت(٣٠).

ولمّا قصرت مرتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أُمروا بالتشبّه بهم بحسب الإمكان، ووعدوا بأنّ مَن تشبّه بقوم فهو منهم، ثمّ كثيراً ما يزداد ذلك التشبيه إلىٰ أن يصير في قوّة المشبّه به، والّذي يبلغ تلك المرتبة فهو الّذي يقال: إنّ الكعبة تزوره وتطوف به، علىٰ مارواه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله.

وأمّا الاستلام:

فليستحضر عنده أنّه مبايع لله علىٰ طاعته، ومصمّم عزيمته على الوفاء ببيعته، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِه وَمَنْ أَوْفَىٰ بِما عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾(٣١).

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض يصافح

بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه»[٣٢].

ولمّا قبّله عمر قال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت رسول الله يقبّلك لَما قبّلتكَ!! فقال له عليّ عليه السلام: «مه يا عمر، بل يضرّ وينفع، فإنّ الله سبحانه لمّا أخذ الميثاق علىٰ بني آدم حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُم عَلَىٰ أَنْفُسِهِم﴾ الآية[٣٣]، ألقمه هذا الحجر ليكون شاهداً عليهم بأداء أمانتهم، وذلك معنىٰ قول الإنسان عند استلامه: أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي عند ربّك بالموافاة»[٣٤].

وأمّا التعلّق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم:

فليستحضر فيه طلب القرب، حبّاً لله وشوقاً إلىٰ لقائه، تبركاً بالمماسة ورجاءً للتحصن من النار، في كلّ جزءٍ من البيت.

ولتكن النية في التعلّق بالستر الإلحاح في طلب الرحمة[٣٥]، وتوجيه الذهن إلى الواحد الحقّ، وسؤال الأمان من عذابه، كالمذنب المتعلّق بأذيال من عصاه، المتضرع إليه في عفوه عنه، المعترف له بأنه لا ملجأ إلّا إليه، ولا مفزع له إلّا عفوه وكرمه، وأنه لا يفارق ذيله إلّا بالعفو وبذل الطاعة في المستقبل.

وأمّا السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت:

فمثال لتردّد العبد بفناء دار الملك، جائياً وذاهباً، مرّةً بعد أخرىٰ، إظهاراً للخلوص في الخدمة، ورجاءً لملاحظته بعين الرحمة، كالّذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الّذي يقضي الملك في حقّه من قبول أو ردّ، فيكون تردّده رجاء أن يرحمه في الثانية إن لم يكن رحمه في الأولىٰ.

وليتذكّر عند تردّده بين الصفا والمروة تردّده بين كفتي الميزان في عرصة

القيامة، وليمثل الصفا بكفّة الحسنات والمروة بكفّة السيّئات، وليتذكّر تردّده بين الكفتين، ملاحظاً للرجحان والنقصان، متردّداً بين العذاب والغفران.

وأمّا الوقوف بعرفة:

فليتذكر بما يرىٰ من ازدحام الناس، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمّتهم في التردّدات على المشاعر ـ اقتفاءً لهم وسيراً بسيرتهم ـ عرصات القيامة، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كلّ أمّة أثر نبيّها، وطمعهم في شفاعتهم، وتجرّدهم في ذلك الصعيد الواحد بين الردّ والقبول.

وإذا تذكّر ذلك فيلزم قلبه الضراعة والابتهال إلى الله أن يحشره في زمرة الفائزين المرحومين، ولكن رجاؤه أغلب، فإنّ الموقف شريف، والرحمة إنّما تصل من حضرة الجلال إلىٰ كافّة الخلائق بواسطة النفوس الكاملة من أوتاد الأرض، ولا يخلو الموقف عن طائفة من الأبدال والأوتاد وطوائف من الصالحين وأرباب القلوب.

فإن اجتمعت هممهم، وتجردت للضراعة نفوسهم، وارتفعت إلى الله أيديهم، وامتدّت إليه أعناقهم، يرمقون بأبصارهم جهة الرحمة، طالبين لها، فلا تظنّن أنه يخيب سعيهم من رحمةٍ تغمرهم.

ويلوح لك من اجتماعهم الأمم بعرفات، والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد، وهو السرّ الأعظم من الحج ومقاصده، فلا طريق إلى استنزال رحمة الله واستدرارها أعظم من اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد علىٰ صعيد واحد.

وأمّا رمي الجمار:

فليقصد به الانقياد لأمر الله، وإظهار الرقّ والعبودية.

ثمّ ليقصد به التشبّه بإبراهيم عليه السلام، حيث عرض له إبليس في ذلك الموضع، ليدخل علىٰ حجّه شبهة، أو يفتنه بمعصية، فأمره الله تعالىٰ أن يرميه بالحجارة، طرداً له وقطعاً لأمله(٣٦).

فإن خطر له أنّ الشيطان عرض لإبراهيم عليه السلام ولم يعرض له، فليعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، وهو الذي ألقاه علىٰ قلبه، ليخيّل إليه أنه لا فائدة في الرمي، وأنه يشبه اللعب. وليطرده عن نفسه بالجدّ والتشمير في الرمي فيه، يرغم فيه أنف الشيطان، فإنه وإن كان في الظاهر رمياً للعقبة بالحصىٰ، فهو في الحقيقة رمي لوجه إبليس وقصم لظهره، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلّا بامتثال أمر الله، تعظيماً لمجرّد الأمر.

وأمّا ذبح الهدي:

فليعلم أنّه تقرّب إلى الله تعالىٰ بحكم الامتثال، فليكمل الهدي وأجزاءه، وليرج أن يعتق الله بكلّ جزءٍ منه جزءاً من النار، هكذا ورد الوعد، فكلّما كان الهدي أكثر وأوفر كان الفداء به من النار أتمّ وأعمّ، وهو يشبه التقرب إلى الملك بالذبح له وإتمام الضيافة والقرىٰ، والغاية منه تذكّر المعبود الأول سبحانه عند النية في الذبح، واعتقاد أنه متقرب به بأجزائه إلى الله.

فهذه هي الإشارة إلىٰ أسرار الحج وأعماله الباطنة.

الهوامش :

(١) تجد ترجمته في: أمل الآمل ٣٣٢/٢، تنقيح المقال ٢٦٢/٣، روضات الجنات ٢١٦/٧، الغدير ١٨٨/٤، بحار الأنوار: المقدمة، أنوار البدرين: ٦٢، خاتمة المستدرك ٤٦١/٣، مجالس المؤمنين ٢١٠/٢، لؤلؤة البحرين: ٢٥٣، ومصادر أخرىٰ كثيرة.

(٢) المأوىٰ ـ بفتح الواو ـ لكلّ حيوان: مسكنه (المصباح المنير: ٣٢ أوى).

(٣) الحج: ٢٧.

(٤) الحج: ٢٨.

(٥) عوالي اللئالي ٤٢٦/١ ح١١٣، مستدرك الوسائل ٤١/٨ ح٢٢.

(٦) كنز العمال ٧٢/٥-٧٣ ح١٢١٠٥ و١٢١٠٦، ونقله عن شرح ابن ميثم البحراني هذا، في مستدرك الوسائل ٤٣/١٠ ح١١٤٠٧.

(٧) مثله في المستدرك ٣٧/٨ ح٩٠١٠، ٣٠/١٠ ح١١٣٨٢.

(٨) مثله في الوسائل ٩٦/١١ ح١٤٣٣٢، المستدرك ٤١/٨ ح٩٠٢٢ و٩٠٢٤، البحار ١١/٩٩ ح٣٤.

(٩) الكافي ٢٥٥/٤ ح١٤، التهذيب، ٢٤/٥ ح٧١، الوسائل ٩٩/١١ ح١٤٣٤٠، وفي جميع هذه المصادر الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام.

(١٠) الفقيه ١٣٧/٢ ح٥٨٧، الوسائل ٥٤٧/١٣ ح١٨٤٠٧، مستدرك الوسائل ٢٩/١٠-٣٠ ح١١٣٧٩-١١٣٨١.

(١١) راجع: الوسائل ٩٣/١١ ب٣٨ وغيره من الأبواب، المستدرك ٢٤/٨ ب ٢٤ وغيره من الأبواب.

(١٢) موسوعة أطرف الحديث ٣٧٤/١، عن إتحاف السادة المتقين للزبيدي.

(١٣) المكس: الجباية، جمع على مكوس، وقد غلب استعمال المكس فيما يأخذه أعوان السلطان ظلماً. (المصباح المنير: ٥٧٧ مكس).

(١٤) جامع أحاديث الشيعة ١٦٦/١٠ ح٤٨٤ عن عوالي اللئالي.

(١٥) البقرة: ١٩٧.

(١٦) في بعض النسخ: الحق.

(١٧) تَفِثَ تَفَثاً فهو تفِثٌ: إذا ترك الإدّهان والاستحداد فعلاه الوسخ. (المصباح المنير: ٧٥ تفث).

(١٨) عوالي اللئالي ٣٦/٤ ح١٢٣، المستدرك ٤١/٨ ح٩٠٢٣.

(١٩) الحج: ٢٩.

(٢٠) مسند أحمد ٤٤١/٣، باختلاف، وفي الوسائل ٤٨١/١١ ح١٥٣١٣: «لا تتخذوا ظهورها مجالس».

(٢١) كنز العمال ٢٣٣/٥ ح١٢٧٢٢، باختلاف.

(٢٢) الحج: ٣٧.

(٢٣) كنز العمال ٨٤/٥ ح١٢١٥٣.

(٢٤) المائدة: ٨٢.

(٢٥) كنز العمال ٣٢/٥ ح١١٩٢١، و ص١٤٩ ح١٢٤١٦، مع اختلاف.

(٢٦) الكهف: ١٠٣-١٠٤.

(٢٧) النحل: ٧.

(٢٨) النساء: ١٠٠.

(٢٩) راجع: نهاية الارب ٢١: ٣٢٦، تهذيب التهذيب ٧: ٣٠٦.
(٣٠) الوسائل ١٣: ٢٩٦ ح١٧٧٨٨، وغيره.
(٣١) الفتح: ١٠.
(٣٢) المحاسن: ٦٥، البحار ٩٩: ٢٢٥ ح٢٢، مع أختلاف يسير.
(٣٣) الأعراف: ١٧٢.
(٣٤) الوسائل ١٣: ٣١٣ ب١٢ من أبواب الطواف، وغيره.
(٣٥) في بعض النسخ: الراحة.
(٣٦) الوسائل ١٤: ٢٦٣ ح١٩١٥٣، ١٩١٥٤، ١٩١٥٦، ١٩١٥٧.